الجانب الاجتماعى

فى الشعر الحديث

شوقى — حافظ — مطران

للأديب أحمد عبد المجيد الغزالى

انتهينا فى مقالنا السابق إلى هذه الأسئلة " هل كان لشعر شوقى أثر فى توجيه حياتنا الاجتماعية إلى هدفها المرجو المنشود ؟ والى أى مدى احتفى شوقى بالناحية الاجتماعية ؟ وهل زحم حافظا فى هذه الناحية أم زحمه حافظ ؟ وكيف كان لون تلك الظروف التى أحاطت بالشاعرين ؟ ومن منهما كان حرا طليقا فأمسك عن الشدو والتغريد ؟؟ ثم أخيرا ما موقف شاعرنا مطران من صاحبيه ؟ هل جال معهما فى هذا الميدان جولات موفقة ؟ ثم ما قيمة الأثر الذى تركه هذا الثالوث فى مجتمعنا المصرى ؟ وهل قنع المجتمع بهذا الأثر الذى تطالعنا به دواوينهم ؟ أم طالبهم بأكثر من هذا فلم يستجيبوا ؟

وسأحاول الإجابة فى هذه السطور بادئا بشوقى الشاعر الذى شغل اسمه فترة طويلة من الزمن ، فمن حقه أن يتقدم صاحبيه ، وسيدور كلامنا على الشعراء الثلاثة فى حدود الفكرة الاجتماعية ، التى توافرنا عليها فى دراسة أشعارهم و بيئاتهم .

ما من كاتب فى مصر إلا وكتب عن شوقى ، مجاملا أو متجنيا ولن تستطيع العثور على كلمة بريئة من الهوى والغرض ، ولو ألقى المهاجمون " بعض أسلحتهم " وواجهوا شاعرنا شوقى بحقيقة شاعريته مجردة لكان لكلامهم أثر كبير ، فيما يهدفون اليه .

لا نريد أن نسترسل فى هذه الناحية ، فالكلام فيها يطول و يطول ، وليست من موضوعنا ، والذى لا مراء فيه ، هو أن شوقى وصل الى نباهة شأن ، وذيوع صيت قل أن يصل إليهما شاعر ، وذلك بعد أن أعدلها جاهدا كافة " الوسائل " التى ضمنت له الوقوف فى الطليعة . وقد تهيأت لشوقى ظروف خاصة لم تتح لسواه مكنته من النجاح فى مضمار الشهرة والظهور وقد ساهم شعر شوقى الذى خص به المجتمع فى العمل لهذه الشهرة وذلك الظهور ، على الرغم من ندرة هذا الشعر وقلته ، بجانب ما قاله شوقى فى فنون أخرى ، فقد عاش الشاعر صدرا من حياته غير حافل بما يضطرب حوله من أحداث اجتماعية وما يقوم من مشاكل مختلفة تتناول المجتمع المصرى تناولا غير كريم ... ظل شوقى على هذه الحال ردحا طويلا من

الزمن كان فيه وثيق الصلة بالقصر ، مشغولا بأقيال مصر وسادتها يتغنى مآثرهم و يشيد بآثارهم ولم ينس سلاطين بنى عثمان وأبطال الحرية والدستور العثمانى .

كل ذلك لفت شوقى لفتا لاهوادة فيه ولا رفق ، عن حاجات المجتمع ومشاكل البيئة فإذا استطاع أن يشير وهو فى هذا المقام ، الى إصلاح المجتمع ، والعمل على رفع مستواه ، ألمع الى ذلك فى قصائده وأمداحه ، وحاول أن يصل عن هذا الطريق الى تحقيق آمال المجتمع وأمانيه :

ولا جال إلا الخير بين سرائرى لدى ستة خيرية الرغبات

و يمدح الخديو عباسا فيقول ،

لا يظهر الكبراء آية عزهم حتى يعزوا آية الأفكار

وفى قصيدة أخرى يقول له :

ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلا طب ولا آس

هذه الأبيات المبثوثة فى شعر شوقى ، لايمكن أن تنهض بمطالب المجتمع المثقل بأعباء الزمن ، وتكاليف الأيام .

عاد شوقى من منفاه سنة ١٩١٩ ، فراقب عن كثب ، شؤون المجتمع ، وسجل فى شعره أحداثه وضمنه رغباته ، ولكن بعد أن ملأ حافظ جنبات انوادى ، بأناشيده وألحانه ، وصور آلام المجتمع وآماله ، فى صدق و إخلاص على طريقته وأسلوبه ، وسنرى عند الكلام عن حافظ ، أنه لم يدع لشوقى فى هذه الناحية مجالا ، الا واقتحمه و برز فيه . . .

قلنا آنفا إن شوقى قرب من المجتمع كثيرا بعد عودته من أسبانيا ، ولعله أحس فى أعماقه إحساسا غامضا ، واختلج فى وجدانه شعور مبهم ، نحو حق هذا الوطن عليه ، فاشتاق العودة ، فى عنف وحرارة ، ليتدارك ما فاته فى ظل الوطيفة :

لكن مصر ، و إن أغضت على مقة عين من الخلد بالكافور تسقينا

على جوانبها ، رفت تمائمنا وحول حافاتها قامت رواقينا

ملاعب مرحت فيها مآربنا وأربع أنست فيها أمانينا

* * *

استقبل شوقى وطنه بعد ما برحت به النوى ، فلم تكد تطأ قدمه أرض الوطن حتى قابل مشكلة التموين التى كانت شغل البلاد الشاغل إذ ذاك ، والتى هى مشكلة اليوم فتناولها فى هذه القصيدة التى حيا بها مصر ، وهو ينثر الدمع ، و يذيب سواد القلب :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا وأجزيه بدمعى لو أنابا

وقل حقه العبرات تجرى و إن كانت سواد القلب ذابا

ويدعو الجميع إلى نصرة الحق وحمايته

عباد رب الله حاموا بمصر ... أيملا سقت فيهم أم سرابا
أمن لكل بريء ما عقاب ... ومن لكل الفقير ولا عقابا ؟
أصيب من الدهر كل صابر ... أشد من الزمان عليه نابا

ثم يستدرك لأكف ، ويستحيها ، لطبقات البائسة الفقيرة وهي سواد الشعب :

أتسمع رحمة في كل بلد ... ولست تحس للبر انتدابا
أكل في كتاب الله إلا ... زكاة المال ليست فيه بابا
إذا ما المعدمون شكوا وحموا ... فدستهم وسمع الغوث السغابا

ثم تسمعه يحذر من عمال حتلاء ، وتركهم لعوادي الدهر وكوارث الليالي ، ويخشى أن تقسو شرا مستطير على بلاد ، ويعيشوا فيها ذئابا مفترسة ضارية :

ولم أر مثل سوء الخير كسبا ... ولا كخسارة السوء اكتسابا
ولا كالوقت بؤسى شاء ... إذا جوعتها انتشرت ذئابا

وهناك طائفة عامة تحتقرها ، لا ينبغي أن يتناساها الشاعر الاجتماعي لأنها خليقة بخطره ، عظيمة الأثر في تقدم المجتمع ونهضته :

أيها العاملون أنتم الـــعمر كدا واكتسابا
واعمروا الأرض فالعلا لا سعيكم أمست يبابا

ثم يوصيهم ويقفهم على مطالبه بحقوقهم ، ويحضهم إلى الجد والدءوب :

أيها العاملون كالنحل ارتيادا وطلابا
في كفور الطير الرز في محيا ودهابا
اطلبوا حق يدين واجعلوا الواجب دابا
وستلقوا منح الله لكم بابا فبابا

ويخلص من قضية العمل إلى قضية المرأة ، فيحث على تعليمها وتثقيفها ، لتأخذ نصيبها من الحياة ، مستمدا من رسول الله :

هذا رسول الله لم ... ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة ... لنسائه المتفقهات
كانت سكينة تملأ الـ ... ـدنيا وتهزأ بالرواة

ولم لا تكون مصر كبغداد ودمشق ، ورياض أندلس :

بغـــداد دار العالمـات ومـــترل المتـــأدبات
ودمشق تحت أميـــة أم الجوارى النابغـات
ورياض أندلس نمـــين الحـاتفات الشاعرات

وهو ذا يستنهض همة الشباب ، ويحببهم فى الدرس والتحصيل ، ليسيروا بالمجتمع فى هدى ورشاد ، يمثل لهم الجهل تمثيلا بشعا ، فهو الداء العضال الذى يفتك بالشعوب فتكا ذريعا :

إنى نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهـــل داء للشعوب مبيـدا
الجهـــل لا يلد الحيـــاة مواته إلا كما تـــلد الرمام الدودا

لم يبق لشاعرنا فى الاجتماع إلا قصيدتاه " مملكة النحل " و " الحجاب والسفور " ، والقصيدة الأولى جيدة حقا ، تلمس المجتمع من جانبه الخلقى ، فعلى دعائم الخلق قامت هذه المملكة ، طاعة ، ودأب وجهد متواصل ، كل أولئك ترفع شأن الملك وتعز سلطانه :

قف ســـائل النحل به أى عقـــل دبره
يحبك بالأخلاق وهـــــى كالعقيق جوهرة
تغنى قوى الأخـــلا ق ما تغنى القوى المفكرة
ويرفـــع الله بهـــا ما شاء حتى الحشرة

وهو يقدم هذه المملكة نموذجا يمكن أن يحتذيه قومه ومواطنوه ، فى سياسة الملك وتقوية أسبابه :

أليس فى مملكة النحل لقـــوم تبصـــره
ملك بناه أهـــله بهمـــة ومجـــده
لو التمست فيـــه بطـــــال اليدين لم تره
تقتـــل أو تنفى الكسا لى فيـــه غير منذره

أما قصيدة شوقى " الحجاب والســـفور " فليس فيها غير ترديد لفكرة تحرير المرأة فى معظم أبيات القصيدة ، وأعتقد أنه لن تربو بضاعة شوقى فى ســـوق المجتمع عن هذا القدر ، اللهم إلا ما تناثر من أبيات قلائل هنا وهناك ، وإذا أردنا أن نقيس ما قاله شوقى ، بما قاله حافظ ، رأينا حافظا يثب وثبة بعيدة ، تاركا شوقى مكانه . وسنقف فى

مقال الشهر القادم مع حافظ طويلا نسمع اليه ، وهو يقص علينا سير المجتمع وأخباره ، ويشرح لنا رسالته التى أداها فى أمانة وصدق ، وكيف زحم شوق وظهر عليه ، ولن نقبل منه هذه الدعوى إلا اذا أيدها بأدلة قوية من شعره تنهض بدعواه ، ثم نعقب على حديثه برأى فى زميله وصديق صباه مطران ، الذى لاذ بالصمت فى هذه الأيام ، إلا فى مناسبات عابرة ، لا حظ لها من البقاء والخلود ؟

أحمد عبد المجيد الغزالى

الشبان الخليعون

للأستاذ محمد مصطفى حمام

كل ما يعشق النساء من الزينـ ـة يأتيه صبية سفهاء
كشفوا الرأس فى الطريق وساروا وعلى الخد حمرة وطلاء
قل لمن كحلوا العيون خسئتم أين منكم مروءة وحياء ؟
قل لمن زججوا الحواجب سحقا ليتها لم تلدكمو حواء
قل لمبدى التهدين عجبا وتيها أنت والمرأة البغىّ سواء
أيها الراقصون أضيتم الأجـ ـسام هزا فنيم هذا العناء ؟
أيها الطالبون صيدا من الغـ ـيد لأنتم صيد وأنتم ظباء
قصف الله غصن كل شباب ليس فيه من الفضيلة ماء !

محمد مصطفى حمام